

التسامح الديني لدى محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري

The religious tolerance of Mohamed Ben Mustafa Ben Khoja of Algeria

زهير قوتال *

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2 - الجزائر، gouttelzahir@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/10/18 تاريخ القبول: 2022/03/01 تاريخ النشر: 2022/03/31

ملخص:

لقد واجهت رواد الإصلاح في العالم الإسلامي الحديث جملة من التحديات الفكرية والعملية، ومن بين هذه التحديات مسألة التعصب الديني وانتشار الإسلام بالقوة والإكراه، الأمر الذي دفع هؤلاء العلماء، من بينهم ابن الخوجة، للرد على الخصوم في هذا الموضوع وتبديد هذه المزاعم وتفنيدها، سواء بالتأليف أو الدروس وإلقاء الخطب في المحافل العلمية والنوادي الفكرية والسياسية، وهذا لما رأوه لدى كثير من الغربيين مستشرقين وسياسيين، الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ويجهلون أركانه ومبادئه ومقاصده، حيث قام أغلب هؤلاء برمي الإسلام والمسلمين جميعاً بالتوحش والتعصب الديني، زاعمين أن هذا الدين ينهى المنتسبين إليه عن معاملة غيرهم بالحسنى، فانبرى ابن الخوجة للمساهمة في تبيان المسألة وتحرير الإشكال فيها وتغليطهم مستنداً إلى حجج من الإسلام نفسه قرآناً وسنة، ومن التاريخ الإسلامي وواقعه المشهود. دون أن ينكر أن هناك البعض، من من ينتسبون إلى هذه الشريعة السمحاء، قد ارتكب المجازر وأساء للمخالفين باسم هذا الدين العظيم وهو في حقيقة أمره كانت تتحكم فيه الأهواء وحب التسلط لا غير.

الكلمات المفتاحية: ابن الخوجة؛ النهضة؛ التعصب الديني؛ التسامح؛ حرية الاعتقاد.

Abstract:

The leaders of reform in the modern Islamic world have faced a number of intellectual and practical challenges, including religious intolerance and the spread of Islam by force and coercion, which have led these scholars, including Ibn al-Khoja, to respond to adversaries on this subject and to dispel and refute these claims, whether by writing or by giving lessons and speeches in scientific forums and intellectual and political clubs, as a consequence to what they have noticed in many western politicians and revelers, whom only know Islam by name and totally disregard its principals. Many of them describe Islam and Muslims to be savages and intolerant to other religions, claiming that Islam forbids its followers from treating others with kindness. Thus, Ibn al- Khoja contributed in clarifying the matter and solving the problem with guidance from the Holy Book of Coran and the sunnah, as well as from reality and Muslim History. Without denying that some of those who are affiliated with this sharia have committed massacres and offended offenders in the name of this great religion, which in fact was controlled only by whims and lust.

Keywords: Ibn Khoja, Renaissance, Religious Intolerance, Tolerance, Freedom of Belief

مقدمة:

من المعلوم أنّ خطاب رواد الإصلاح والنهضة في العالم الإسلامي كان يدور، منذ القرن التاسع عشر، حول ضرورة الوعي بالهوية الحضارية التي تفصل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، فعمد هؤلاء الرواد إلى إصلاح ما يجب إصلاحه، ودرء المفسدات التي أمت بهذه الأمة حتى تستعيد أمة الإسلام نهضتها.

لقد كان هناك شعور لدى الطبقة المثقفة عموماً وعند علماء الإصلاح خصوصاً بأنّ ثمة همّاً مشتركاً وداءً عميقاً تعاني منه الأمة الإسلامية، والمتمثل في داء التقهقر والانحطاط، ناهيك عن سبق الغرب لعالم الإسلام، بل وتهجمه عليه بقصد تمزيقه وإبادته، إنّ هذا الهمّ معادل تماماً للرغبة في التقدم و في قطع المسافة التي تفصل العالم العربي الإسلامي المقهور عن العالم الغربي القاهر، وربما يرجع هذا الهاجس القوي إلى زمن بعيد،

ربما إلى زمن ابن خلدون ثم إلى الاتصالات الأولى بالغرب وإلى الانطباعات التي تركتها هذه الاتصالات لدى مفكرين من أمثال الطهطاوي و خير الدين التونسي.

لقد كانت قضية الإصلاح والخروج من الواقع المير، واقع الاستعمار والتجزئة، والضعف والتخلف، هي القضية الجوهرية المشتركة بين جميع التيارات الفكرية والثقافية على اختلاف مبادئها ومشاربها في العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث والمعاصر. فقد كانت مشكلة النهوض وسؤال التقدم تؤرق أذهان مفكري الإسلام وقلوبهم وتدفعهم باستمرار إلى بيان حدود هذا التقدم المطلوب.

لقد كان أمر مفروغ منه منذ البداية، أن الإسلام مرادف للتقدم والتقدم والترقي، وأنّ عملية تجاوز الانحطاط والتأخر باتجاه التقدم لا يمكن أن تتم إلّا من خلال المعطيات الأساسية للإسلام نفسه. وقد مثّل هذا إجماع مفكرين كثر، ظهوروا في جميع أقطار العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث، منذ الطهطاوي وإلى غاية منتصف القرن العشرين على أقل تقدير؛ ولم يختلف علماء الإصلاح في الجزائر في العصر الحديث عن إخوانهم في المشرق والمغرب، فلا شك أنّ هؤلاء المفكرين ينتمون، كما هو واضح وجلي، إلى أقطار عربية متفاوتة في درجة تطورها الاجتماعي والثقافي والسياسي، بل تبدو بعض الأقطار أحيانا في عزلة تامة عن بعضها الآخر - المشرق والمغرب الإسلامي - إلّا أنّه وبالرغم من هذا الاختلاف والتفاوت يظل هؤلاء جميعا ينتمون إلى أفقٍ روحي متجانس في جوهره، وأنّ الأصول التي يستقون منها ويبنون عليها منتجاتهم الفكرية واحدة؛ كما أن هاجسهم وتطلّعهم العام واحد، أما الذي يتباين و يختلف فهو الظروف الزمانية والشروط الموضوعية التي يقف أمامها هذا المفكر أو ذاك، وهي التي تضغط بدورها على المفكر فتجعله يرى أساس الحل للمشكلة المطروحة في هذا الجانب أو ذاك من مجمل جوانب التصور الإسلامي العام، فيجعله مرتكزا لتصوراته و عصباً لنشاطه الإصلاحي . فقد كان على مفكر النهضة أن يتناول بالنظر مجموع المسائل التي لها علاقة بقضية النهوض بالأمة، فكان لا بد على هذا المفكر أن يحيط تفكيره بوضوح كامل بكل العناصر الدينية والاجتماعية والسياسية، وأن ينظر إلى كل واحدة منها مفصلة إلى أجزائها المتعددة، وأن ينظر إلى مجموعها كتركيب لا بد منه لتحقيق المثل الأعلى الذي نصبو إليه، ثمّ النظر إلى علاقة كل واحد منها ببعضها ومكانه في الانسجام الكامل لمجموع تلك العناصر.

وقد كان زعماء الإصلاح في الجزائر واعون بهذه الأمور أشد وعيا، وقد اشتغلوا، كل بطريقته ومن موقعه، على النهوض بهذه الأمة بقدر ما أوتوا من قوة، وكان الشيخ محمد بن مصطفى أبو الكمال بن الخوجة الجزائري (1283-1333هـ/ 1865-1615م) أحد هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين كرسوا جلّ وقتهم وبذلوا وسعهم في إصلاح هذه الأمة؛ فقد انصبت جهود العلماء المصلحين الجزائريين ابتداء من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى عشية قيام الثورة المسلحة في سنة 1954م، على النهوض بالمجتمع الجزائري، والعمل على ترقية مستواه الفكري، وتمكينه من قسط وافر من العلوم والمعارف، حتى يتسنى له إدراك حقائق واقعه المعيش في ظل الوجود الاستعماري، ومن ثم يسترجع الثقة بنفسه ويأخذ بزمام المبادرة التي تخرجه من دائرة التخلف والانحطاط إلى دائرة الرقي والازدهار، على ضوء الشريعة السمحة التي جاء بها نبي الرحمة محمد ﷺ، وأصول الدين الإسلامي عقيدة وشريعة؛ وهو الدين الذي اتهمه خصومه بالتعصب والعنف والاسترهاب، فضلا عن إكراه الناس باعتناقه بالقوة و على حد السيف . لقد شغل هذا الأمر/ الشبهة فكر الإصلاحين عموما وابن الخوجة بشكل خاص، فألف للرد على هذه الشبهة كتيباً يدحض فيه كل تلك الافتراءات التي طالت هذا الدين الحنيف؛ والإشكال المطروح هو كيف لدين جاء هدى ورحمة للعالمين أن يأمر أتباعه بإكراه الغير على الدخول فيه؟ كيف جاءت ردود ابن الخوجة على تلك الاتهامات؟ وإلى أي مدى وُفق في ردها وتبيان تسامح الدين الإسلامي تجاه الديانات الأخرى؟ فكيف نفسر استعمال المسلمين للقوة والحرب في فتوحاتهم وقاتلهم المشركين؟ وكيف تُفهم الآيات التي تدعوا للقتال ودحر المشركين أينما تُقفوا؟

1. ابن الخوجة، المسار والآثار:

1-1 الولادة والنشأة:

هو محمد بن مصطفى بن محمد بن بكير الخوجة -أو خوجة- ويبدو أنه من أصل تركي، ولد بالجزائر العاصمة سنة 1281هـ - 1865م، في زمن الحديث عن المملكة العربية في عهد نابليون الثالث، وفي زمن المرُسمين الشهيرين اللذين أثرا على مستقبل الجزائر خلال الاستعمار الفرنسي وهما:

أولاً: مرسوم تمليك الأرض العُرشية (العشائرية) للأفراد.

ثانياً: التجنيس حيث فُتح باب التجنيس بالجنسية الفرنسية لمن شاء من الجزائريين بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية.¹

لقد نشأ ابن الخوجة في مرحلة انتقالية من سيطرة العسكر إلى سيطرة المدنيين الفرنسيين، وضياح حقوق الشعب الجزائري بين هؤلاء وأولئك. ولم يُعرف إذا ما كان قد التحق بالمدارس الشرعية- الفرنسية الثلاث التي كانت موجودة آنذاك أم لا. والظاهر أنه كان يلتحق بحلقة درس التي كان يُديرها المفتي عليّ بن الحفاف الذي لم يكن من مدرسي هذه المدارس. كما أنه التحق بحلقة الشيخ محمد السعيد بن زكري من خريجي الزوايا وليس من خريجي المدارس الشرعية-الفرنسية. كما أنه لم يُغادر مدينة الجزائر العاصمة لطلب العلم والتعلم فقد انحصرت ثقافته وتعليمه بالعاصمة دون غيرها.²

1-2 عمله وتدريبه:

في سنة 1896 عمل في جريدة "المُبشّر" الرسمية التابعة للدول المستعمرة، كمُحرر فيها حيث تعلّم من عمله هذا العمل مع المستشرقين الفرنسيين، وعرف اهتمامهم بالمشرق عامة وبالظروف في السلطنة العثمانية زمن حكم السلطان عبد الحميد الثاني والثورة الإيرانية، واحتلال مصر، وثورة المهدي في السودان فضلاً عن معرفته عن كُتب، ماذا كانوا يريدون منه شخصياً ومن الشعب، وكيف كانوا يُحرفون الأخبار ويُزيّفون الحقائق حتى تتناسب وأهواءهم وسياسة دولتهم المستعمرة.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998، 7/ 83.

² المرجع نفسه والصفحة نفسها.

لقد اكتسب من عمله الصحافي ثقافة واسعة في فن الصحافة وأحوال العالم الإسلامي والتي ساهمت نوعاً ما في بلورة أفكاره وكتابات، لقد اكتسب وعياً كبيراً لما يُخطط للأمة الإسلامية من حروب وويلات، وماذا يجب على الأمة القيام به للخروج من التخلف والوهن حتى يُمكنها أن تمتلك عناصر القوة والمقاومة لصدّ كلّ الهجمات الثقافية والفكرية والمادية للاستعمار.

وفي الفترة التي كان يشغل فيها في جريدة "المُبَشِّر"، كانت الموضوعات التي عالجها ابن الخوجة، حيّة وذات صلة بواقع الأمة المتردي: التخلف والجهل، والوضعية السيئة للمرأة والرجل، وكيفية النهوض بهما، وموقف الإسلام من الحضارة والمدنية وغيرها من الموضوعات. وكلّ ذلك كان يجري فيظلّ اتصالاته بأعلام الإصلاح والنهوض في المشرق العربي الإسلامي مثل الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا ومحمد فريد وغيرهم.

لقد كان ابن الخوجة خبيراً بشؤون المشرق كآته عاش فيه قرناً من الزمن على ما وصفه عمر راسم: ذلك لأنّه كان يتابع تطورات المشرق في الفكر والأدب والسياسة نتيجة عمله في جريدة "المُبَشِّر" ولعلّه كان مكلفاً فيها بقسم المشرق وإنتاج دور النشر والجرائد والأعلام والتيارات الفكرية والسياسية آنذاك.³

وقد كان يُراسل الشيخ محمد رشيد رضا ويقرأ مجلة "المنار" بشغف وإعجاب كبيرين، كما أنّه كان متأثراً إلى حدٍ ما بطريقة عمل محمد عبده، وفكره في مجالات التعليم والتحديث والابتعاد عن التيسيس.

وتشهد تأليفه عن المرأة وعن التسامح الديني وعن الدفاع عن الإسلام وعن العلم والتعلّم وغيرها من الموضوعات، على متابعة دقيقة وجدية للقضايا الفكرية والاجتماعية والدينية التي كانت تتفاعل في المشرق العربي والإسلامي.

إنّ موقع ابن الخوجة كصحافي ومحرر في جريدة رسمية تابعة للدولة الفرنسية، وكشخصية عربية إسلامية لها صلات وعلاقات تربطه مع بعض المصلحين في المشرق، دفع المسؤولين عن جريدة "المُبَشِّر" أن يطلبوا منه التفريح للتدريس والانقطاع أو الاستقالة من العمل في الجريدة.

³ وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 1998، 84 / 7، وخير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 10، 1992، 102 / 7.

ويتمثّل عمله كمدرّس في المسجد -مسجد صفر- في الدروس الدينية للعامة، من فقه وتوحيد وتفسير وكلّ ما تسمح به السلطات الفرنسية. وأثناء أدائه لمهمتي التدريس والخطابة حيث جاء تقرير "تنظيم الدروس" بالمساجد سنة 1898 ثم 1900 ثم 1905، يشيد بابن الخوجة فكان من المدرسين المشار إليهم بالبنان، رُغم قلة تلامذته. ولعلّ قدرته على التّأليف والكتابة قد فاقت قدراته وربما رغباته في التدريس، رغم ما عُرف عنه من فصاحة لسانه وقلمه. ولقد وصفت التقارير التي وضعها المفتشون الفرنسيون آنذاك -من أمثال وليام مارس مدير مدرسة الجزائر الشرعية- الفرنسية- على أنّه (أي ابن الخوجة) أفضل من يعرف اللغة العربية وآدابها وأنّه يتكلمها بطلاقة، وأنّه كان رجل فكر وتسامح وانفتاح، وأنّه كان حلو الكلام وفصيح اللسان، كما كان يستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان يستحضر بالإضافة إلى ذلك كتب التراث، فقد كان صاحب ذاكرة فذة ناهيك عن نبوغه وقدرته على الإقناع حيث كان يدعو تلاميذه إلى الانفتاح وحرية الفكر والاعتقاد، وذلك كما وصفه تقرير المفتشين سنة 1906-1907.

1-3 وفاته:

في تقرير التفتيش الذي قدّمه المفتشون الفرنسيون سنة 1907 ذكر أنّ الشيخ ابن الخوجة أُصيب بمرض خطير -والذي رافقه إلى اليوم الذي توفي فيه متأثراً به- وأثناء ذلك اندلعت الحرب العالمية الأولى، ودخلت الجزائر في عهد من المحاصرة السياسية والاقتصادية والانكماش الثقافي والفكري، حيث توقّفت الحياة الفكرية والنشاطات الثقافية باحتجاب الصحف، وإقفال النوادي التي ظهرت خلال العقد الأول للقرن العشرين. وفي سنة 1916 ذكر تقرير المفتشين الفرنسيين أنّ مدرّس وخطيب مسجد صفر، محمّد بن الخوجة لم يَعد خطيباً ولا معلماً هناك، بل لقد خلفه المدرس الشيخ حمود حمدان وعليه فإنّ وفاة ابن الخوجة قد تكن بين سنة 1915-1916 ولم تكن -كما ذكرنا أعلاه- آنذاك صحف ومجلات تُنعيه بسبب الحرب العالمية الأولى. إلا أنّ صاحب كتاب الأعلام، خير الدين الزركلي ذهب إلى أنّ الشيخ ابن الخوجة توفي سنة 1922م وهذا رأي عادل نويهض أيضاً في كتابه أعلام الجزائر⁴.

⁴ انظر خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 10، 1992، 7/، وكذلك معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، دار اليقظة العربية ص 186. وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 7/ 83 وما بعدها.

4-1 الأفكار والأعمال:

كان ابن الخوجة رجل نهضة وإصلاح، أراد من خلال عمله الصحفي والتعليمي وتأليفه، أن ينشر أفكار الإصلاح والتسامح ونبذ التعصّب والتمسك بالدين الحق ألا وهو الإسلام، والتمسك باللغة العربية، كما أنه دعا إلى نبذ البدع والخرافات التي غيّبت العقل وبثت الأوهام والخزعبلات بين الشعب الجزائري؛ وهذا ما كان يدعو إليه رجال الأحياء والإصلاح في المشرق والمغرب العربي والإسلامي. لقد قضى حياته العلمية بين المسجد كمدرس وخطيب وبين جريدة "المُبَشِّر" بالإضافة إلى عمله في دور النشر حيث كان يعمل مُصححاً ومحققاً لبعض الكتب التراثية، من ذلك تفسير جواهر الحسان للشيخ الثعالبي الذي نشرته مكتبة رودوسي سنة 1904. أما مؤلفاته فقد كانت متنوعة بين كتاب ورسالة وتحقيق وقد جُمعت في كتاب واحد بعنوان "أعمال محمد مصطفى بن الخوجة الجزائري"⁵، وقد ضمت كتبه ورسائله غير المفقودة:

-كتاب اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب، مطبعة فونطانة وشركائه، الجزائر سنة 1907/1325.

-رسالة في تراجم علماء الجزائر (وهي رسالة مفقودة).

-إقامة البراهين العظام على نفي التعصّب الديني عن الإسلام سنة 1901.

-تحقيق رسالة للسيوطي تحت عنوان: "الردّ على من أخلد إلى الأرض وجهل أنّ الاجتهاد في كل عصر فرض"، نُشرت بعد وفاته.

- "الطب والحجر الصحي": وهو كتاب عالّج فيه الكاتب عدم منافاة الإسلام للحجر الصحي والعلاج الطبي الذي قامت به السلطات الفرنسية وذلك لمنع انتشار الأوبئة، وربما للكتاب علاقة بهجرة الحجاج إلى الشرق⁶.

- رسالة بعنوان "عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر"، وقد جاءت هذه الرسالة في 25 صفحة وذلك بمناسبة زيارة وفد رسمي من السلطنة المغربية للجزائر بدعوة وتنظيم من السلطات الفرنسية. وتصف هذه الرسالة حسن الاستقبال الذي حظي به الوفد المغربي من قِبَل أعيان الجزائر طيلة إقامته التي دامت حوالي شهرين كاملين⁷.

-الاكتراث بحقوق الإناث، مطبعة فونطانة وشركائه، الجزائر 1895-1313.

⁵ محمد مصطفى بن الخوجة الجزائري، أعمال محمد مصطفى بن الخوجة الجزائري، منشورات خمسينية جامعة الجزائر، 1962-2012، منشورات تالة، الأبيار الجزائر، ط1، 2012.

⁶ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 7/ 184.

⁷ المرجع نفسه، 199/7.

2- ابن الخوجة وحرية الاعتقاد أو في التسامح الديني:

من المعلوم أن الشيخ ابن الخوجة كان يعيش في الوسط الإعلامي الفرنسي بحكم عمله في جريدة (المبشر) الفرنسية، ومخالطته للثقافة الفرنسية وما تنشره من أفكار وانتقادات ضد الإسلام وتراثه، فضلا عن معرفته الكبيرة بالفكر النهضوي في المشرق الإسلامي وغربه عموما والمصري والتونسي على وجه الخصوص، واطلاعه على التحديات التي واجهها هذا الفكر منذ رفاعة رافع الطهطاوي وإلى غاية محمد رشيد رضا مروراً بالأفغاني ومحمد عبده وغيرهم كثير؛ ومن بين الإشكالات التي واجهها زعماء الفكر النهضوي مسألة التعصب الديني وانتشار الإسلام بالسيف (القوة و الإكراه)، الأمر الذي دفع ابن الخوجة الدخول على خطأ أسلافه المصلحين إلى الكتابة في هذا الموضوع وتبديد هذه المزاعم وتفنيدها، وهذا لما رآه لدى كثير من الغربيين الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ويجهلون أركانه ومبادئه ومقاصده، حيث قام أغلبهم برمي المسلمين جميعا بالتوحش والتعصب الديني، زاعمين أن الإسلام ينهى المنتسبين إليه عن معاملة غيرهم بالحسنى، فأحَبَّ أن يبيِّن في الكتيب -الرسالة - غلطهم مستندا إلى حجج من الإسلام نفسه قرآناً وسنة، ومن التاريخ الإسلامي وواقعه المشهود. دون أن ينكر أن هناك البعض من من ينتسبون إلى هذه الشريعة السمحاء قد ارتكب المجازر وأساء للمخالفين باسم هذا الدين العظيم وهو في حقيقة أمره كانت تتحكم فيه الأهواء وحب التسلط لا غير ، كل ذلك "بسبب جهلهم بأحكامه الشريفة ومزاياه الحنيفة، يظنون أنه يأمرهم بمقت كل من خالفهم ديناً، بل وبسفك دمه واستباحة ماله، ويرون ذلك مما يقربهم إلى الله زلفى تقليدا لمن اتخذوا نسبهم إلى الصالحين ذريعة الأكل أموال الناس بالباطل، وجعلوا نفاقهم آلة لاكتساب الوجاهة والشهرة"⁸، ويعتبر ابن الخوجة أن سوء الفهم هو السبب الأول في الشقاق بين الفريقين ومنشأه؛ ومعلوم أن بقاء هذا الأمر على ما هو عليه يزيد الأمر تعقيدا وتكريسا للتنافر والتناحر بين الأفرقاء، ووقد جاءت هذه الرسالة المستعجلة "بما يفهم منه النهي عن تفريق الأهواء، وتشعب الآراء، والحث على الألفة والتوَادُد، والتعاون على الخير والتعااض، ووصل الروابط الوطنية بالاستيطانية، ليكون مجموع سكان البلاد الجزائرية، أمة قائمة بحفظ حقوق الولاية السنية، ورعاية قوانينها المرعية، فتعم المدنية، وتتسع دائرة العمارة،

⁸ محمد بن مصطفى بن الخوجة، إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، ضمن أعمال ابن الخوجة، المرجع السابق، ص. 107.

وينتظم شمل الاجتماع البشري"⁹، امثلا لما أمر الله به عباده المؤمنين في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾¹⁰ وكل ما ذكر ملاحظ قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَجْوَهِمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يَبْتَغِ النَّاسُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾¹¹.

من المعلوم من الدين بالضرورة "أن التعصب الديني ممنوع في شريعتنا السمحة"¹² بالنص القرآني، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾¹³، فلا يكره أحد من الناس على تغيير دينه والدخول في الدين الإسلامي، والنصوص في ذلك صريحة، قرآنية كانت أو حديثية، فالإنسان في الإسلام كائن مختار وهو ما أوصى به نبيه محمد ﷺ عندما قال له: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾¹⁴. ولما كان الإسلام كذلك، فقد كان إنسانياً متسامحاً، وليس له سلطة على الإنسان غير سلطة العقل والبرهان، ومن هنا، فإن كل ما هو عقلي هو إسلامي (شرعي) بالضرورة والمفهوم -كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، في كتابه درء تعارض العقل والشرع- وكل من هو حر فلا شيء يفصله عن الإسلام إلا أن يعقل. إن الإقرار بالحق في الاختلاف، من حيث إنه يقتضي، مبدئياً وأخلاقياً، حرية الاعتقاد، وحرية الرأي، تعبيراً عنه وممارسة له، يتوجب عنه أمرين إثنين، أولهما: تجنب كل إكراه في عرض المعتقد والتعبير عن الرأي، سواء كان إكراها مادياً أو معنوياً، ثم ثانياً -ومكملاً للأول- جعل الاقتناع بالمعتقد تابعا للدليل العقلي المناسب المتعلق بأسانيد الصدق والصواب في كل معتقد، وعليه لا يقتضي الإقرار بالحق في الاختلاف القول بتساوي المعتقدات والآراء في ذاتها باسم احترام المخالف أو نسبية الحقيقة، فلا يعطي هذا الإقرار أصحاب المعتقدات وأصحاب الآراء قيمة لمعتقداتهم وآرائهم قيمة موضوعية تعفي أصحابها من تقديم الدليل والبيان لإثباتها.¹⁵

⁹ إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، ضمن أعمال ابن الخوجة، المصدر نفسه، ص. 107.

¹⁰ سورة هود، الآية 88.

¹¹ سورة النساء، الآية 114.

¹² إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، ضمن أعمال ابن الخوجة، المصدر نفسه، ص. 108.

¹³ البقرة، الآية 256.

¹⁴ الغاشية، الآية 22.

¹⁵ عبد الجليل الكور، لماذا لست ملجدا؟ المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط1، 2016، ص. 54 و55 و124 وما بعدها.

وقد استشهد ابن الخوجة بحديث نبوي شريف الذي أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، رضي الله عنه، أن رجلا من الأنصار من بني سالم بن عوف يُقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله تعالى في ذلك هذه الآية¹⁶. وقد انزل الله آيات بينات عديدة في هذا الشأن لعظمة الإيمان و عظمة حرية الاعتقاد وتأثيرها على النفوس والأفعال، وقد عدد ابن الخوجة هذه الآيات جميعا، مبتدأ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾¹⁷، وقال أيضا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝﴾¹⁸ وقال تعالى أيضا: ﴿وَقُلْ أَلْحَقْ مِنْ رَبِّكَ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۝ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾¹⁹ وقال أيضا: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾²⁰ وقد خاطب النبي ﷺ فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبَبَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَلْمُهْتَدِينَ ۝﴾²¹، كما أمره تعالى أيضا بقوله: ﴿أَتَسْمِعُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝﴾²² فلست يا محمد رقيبا عليهم فتجازيهم بما يقومون به من أفعال، وما أنت عليهم بوكيل حتى تجبرهم و تكرههم على الإيمان،²³ ذلك لأن الإيمان شأن ربانيا خالصا لله وحده فلا تصح عبادة و لا يصح عمل من دون حرية و لا إرادة حرة، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ آمَةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾²⁴ والمعنى، بحسب ابن الخوجة، أنه محرم على المسلمين شتم من يعبد الأصنام وما يعبدون أو لعنهم، فإن ذلك

¹⁶ ابن جرير الطبري في تفسيره للآية (لا إكراه في الدين) من حديث محمد بن إسحاق، وذكره كذلك ابن كثير والبغوي في تفسيريهما.

¹⁷ سورة يونس الآيتين 99 و100.

¹⁸ سورة هود، الآية 119.

¹⁹ سورة الكهف، الآية 29.

²⁰ سورة لقمان، الآية 23.

²¹ القصص، الآية 56.

²² سورة النعام، الآيتين 106 و107.

²³ محمد بن مصطفى بن الخوجة، إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص، 109.

²⁴ سورة الأنعام، الآية 108.

يؤدي بطبيعة الحال شتم الله وسبه، بل إلى فتنة الدين، وبالتالي إلى العنف والعدوان، وهذا في حق من لا يؤمن بالله ولا بنبيه، فما بالك أيها المسلم بمن يعبدون الله ويؤمنون به ولكنهم لا يؤمنون بنبيه (ﷺ)، فلا شيء عليهم وليس في حقهم شيء مادام لم تصلهم رسالته "إذ ليس للعقل في ذلك مجال"²⁵؛ وقد ذهب أبو حامد الغزالي إلى أن الناس بعد مجيء النبي ﷺ أصناف "صنف لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلاً فأولئك مقطوع لهم بالجنة، وصنف بلغتهم دعوته وظهور المعجزة على يده وما كان عليه ﷺ من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ولم يؤمنوا به فأولئك يجازيهم ربهم بما سبق في علمه، وصنف بلغتهم دعوته -عليه الصلاة والسلام- وسمعوا به لكن كما يسمع أحدنا بالدجال وحاشا قدره الشريف ﷺ عن ذلك فأولئك أرجو لهم الجنة إذ لم يسمعوا ما يرغبهم في الإيمان به"²⁶

فلم يمنعنا الدين الإسلامي من التعامل بالحسنى مع أهل الملل والديانات الأخرى، الذين لم يقاتلونا ولم يظلمونا ولم يخرجونا من ديارنا ولا أراضينا فقال تعالى: ﴿لَا يَهْدِيكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾²⁷، أي العادلين في المعاملات كلها، وقد جاءت آيات كثيرة تحث المسلم على إقامة العدل وأداء الأمانات وإيفاء بالوعود والعهود، وفعل الخير والبر إلى الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم إلا من ظلم، منها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾²⁸، وقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾²⁹، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَلَوْ أَنْ تَلُوكُمْ أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾³⁰، وقوله تعالى في آية أخرى قريبة من

²⁵ محمد بن مصطفى بن الخوجة، إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص 109.

²⁶ المصدر نفسه، ص 109.

²⁷ الممتحنة، الآية 8.

²⁸ النحل، الآية 90.

²⁹ النساء، الآية 58.

³⁰ النساء الآية 135.

هذا المعنى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾³¹.

كما أنه قد استدل كذلك بعدة أحاديث نبوية شريفة تُقر ما حثَّ به الإسلام على معاملة المخالفين للدين الإسلام معاملة حسنة ، ومن هذه الأحاديث الشريفة حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قدمت عليّ أمي وهي راغبة أفأصل أمي؟، وفي رواية قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قدمت عليّ أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال : نعم، صلي أملك³² ، وفي بعض الروايات: أنها قدمت ومعها هدايا من زبيب وسمن ونحو هذا، فامتنعت ابنتها أسماء من إدخالها في بيتها، ومن قبول هديتها، خشية أن يكون ذلك من موالاة المشركين، رفضت أمها، وأوقفتها وهي قادمة من سفر، ومنعتها من الدخول خشية أن يكون ذلك من موالاة المشركين، فسألت عائشة -رضي الله تعالى عنها، فطلبت منها أن تسأل النبي ﷺ، فأذن لها بأن تصلها، وأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها.³³ بل إن الشارع الحكيم أوصانا بالوالدين خيرا وإحسانا وعطفا مذكرا بما تحملته أمه و أبوه من تعب و قهرا حيث قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾³⁴ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَنْتِجُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾³⁵ ، وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾³⁶ ، فقد أوصى الله الإنسان أن يصاحب والديه في الدنيا بالمعروف أي بما يرضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة كإطعامهما وكسوتهما وعدم جفائهما وانتهارهما، وعيادتهما إذا مرضا ومواراتهما والدعاء لهما إذا توفيا³⁶.

³¹ المائدة، الآية 8.

³² أخرجه البخاري، (2620)، ومسلم، (1003).

³³ ابن الخوجة، المصدر نفسه ص 110.

³⁴ لقمان، الأيتان 14 و 15.

³⁵ الأحقاف، الآية 15.

³⁶ محمد بن مصطفى بن الخوجة، إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، مصدر سابق ، ص. 110.

وبالمحصلة فإنه يجب على المسلم أن ينفق على والديه في حالة العوز والحاجة حتى وإن كانا على غير دينه وكذلك البرّ إليهما وخدمتهما ، خاصة في حالة عجزهما أو مرضهما، فضلا على زيارتهما واحترامهما وعدم الإساءة لهما ولو بكلمة " أف " هذه هي مبادئ الإسلام وقيمه .

أما فيما يتعلق بقوله تعالى في مستهل سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَيَنَازِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي يُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَحْفَيْتُمْ وَمَا أَغْنَيْتُمْ وَمَنْ يَقَعُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝٣٧﴾ ، فقد نزلت في الصحابي حاطب بن أبي بلتعة³⁸ لما كتب إلى أهل مكة يحثهم على أخذ الحيطة والحذر لأن النبي ﷺ يتجهز للفتح، وقد أرسل هذا الصحابي هذا التحذير مع امرأة من موالي بني هاشم يقال لها سارة، كانت قد جاءت إلى النبي ﷺ فقال لها ﷺ: أمسلمة جئت قالت لا، قال أمهاجرة قالت لا، قال فما جاء بك قالت: قد ذهب الموالي يوم بدر، أي قد قُتلوا في ذلك اليوم، فاحتجت حاجة شديدة، فبحث عليها بني المطلب فكسوها وزودوها، فجاءها حاطب وأعطاهما بعض من المال وكساها برداء واستحملها تلك الرسالة إلى مكة، فخرجت سائرة فأطلع الله الرسول ﷺ على ذلك، فأرسل في عقيها بعض الصحابة من بينهم عمر وعلي فأدركوها، وسألوا عن ذلك فأنكرت وحلفت فقال علي ﷺ- والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه فأخرجت الكتاب من عناص شعرها فجاءوا به إلى النبي ﷺ، فعرضه على حاطب فاعترف، وقال إن لي

³⁷ الممتحنة، الآية 1.

³⁸ حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، ثنا سُفْيَانُ، ثنا عُمَرُو بْنُ دِينَارٍ، أَخْبَرَنِي الْحَمْسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ كَاتِبَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَعْثُرِي مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَا، وَالزُّبَيْرُ، وَالْمُقْدَادُ فَقَالَ: انْطَلِفُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ بِهَا طَعِينَةٌ مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلِفْنَا نَعَادِي بِنَا خَيْلَنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرُّوضَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِالطَّعِينَةِ فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لِنُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لِنُلْقِيَنَّ الْكِتَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ بِمَكَّةَ يُخَيِّرُهُمْ بَعْضُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟ فَقَالَ حَاطِبٌ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي كُنْتُ امْرَأَةً مُلْصَقًا فِي فَرْشِي وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مَنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهَالِيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِمَكَّةَ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ بَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ ذَا كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عُقُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ قَالَ عُمَرُو بْنُ دِينَارٍ: وَتَرَلْتُ فِيهِ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ (الآيَةُ قَالَ سُفْيَانُ: فَلَا أَذْرِي أَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ أَمْ قَوْلًا مِنْ عُمَرُو بْنِ دِينَارٍ" ، أخرجه البخاري ، في عدة مواضع (2874) و (4626).

بمكة أهلاً ومالاً فأردت أن أتقرب منهم وقد علمت أن الله تعالى ينزل بأسه عليهم فصدقه النبي ﷺ وقبل عذره، فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فرد عليه النبي ﷺ قائلاً: ما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد أطلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم، فنزلت الآية³⁹.

والمستفاد من هذه الحادثة ونزول هذه الآية الكريمة هو ما عليه الإسلام من تسامح ومن حسن المعاملة مع جميع الناس، سواء أكانوا أحراراً أم عبيداً، أو كانوا مسلمين أو من الديانات المخالفة، فإن سارة هذه لما جاءت إلى النبي ﷺ ولم تكن مسلمة ولا مهاجرة، أمر بإكرامها وحث عليها من كسوها وحملوها، أما المنهي عنه في هذه الآية فيفهم من سياق الحادثة أي هم المحاربون للمسلمين لا كل من خالف دينهم وعقيدتهم وهو ما أكدته الآية الثامنة من السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾⁴⁰.

وقد سار على هذا المنوال جميع علماء الإسلام حتى المتشددون منهم، وهذا السيوطي في جوابه على جملة من الأسئلة التي وردت عليه: هل يجوز صحبة المخالفين في الدين وتقبل هديتهم فأجاب بجواز ذلك⁴¹، وقد استدلل ابن الخوجة بما جاء في كتاب "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر من أن النبي ﷺ استوصف الحارث بن كلدة، طبيب العرب، دواءً فوصفه له، وكان الحارث على غير ملة الإسلام ومات وهو على دينه⁴²، ولذلك كان اختلاف الدين والملة لا يمنع صحة الوصية فتجوز الوصية من المسلم للذمي والمستأمن ومنهما للمسلم كما هو معروف عند الفقهاء⁴³.

³⁹ محمد بن مصطفى بن الخوجة، إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص. 111 و 112.

⁴⁰ الممتحنة، الآية 8.

⁴¹ ابن الخوجة، المصدر السابق، ص 112.

⁴² ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الصحابة، تحقيق عادل مرشد، دار الأعلام، عمان الأردن، ط 1، 2002، ص. 143.

⁴³ محمد بن مصطفى بن الخوجة، إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص. 112.

وقد سرد ابن الخوجة جملة من الآثار النبوية مدعما بها رأيه حول المسألة، منها أنّ النبي ﷺ كان يجيز الوفود والرسل الذين يأتونه وأوصى أن يفعل ذلك بعده،⁴⁴ كما أنّ النبي ﷺ نبّه المسلمين بكرامة الإنسان ومكانته عند الله فقال: "الخلق كلهم عيال الله وأحيمهم إلى الله أنفعهم لعياله"⁴⁵، وروي عنه "تصدقوا على أهل الأديان كلها"⁴⁶ وقال أيضا: "رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس واصطناع المعروف مع كل بر وفاجر"⁴⁷ وقال أيضا: "خاب عبد وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر"⁴⁸ وقال أيضا "الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"⁴⁹، بل إنّ الدين الإسلام تجاوزت رحمته و سماحته البشرية و الأدمية لتسع الهائم والكائنات الأخرى، فقد بيّن النبي ﷺ، أنّ الرحمة واجبة على جميع خلق الله فقد روي عنه أنّه قال: "بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَالًا حَقُّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ"⁵⁰، وروي عنه قوله: "عَذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ : فقال: وَاللَّهِ أَعْلَمُ: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتَهَا وَلَا سَقَيْتَهَا حِينَ حَبَسْتَهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتَهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ".⁵¹

وإذا كان هذا حال من يحصل منه الأذى للبهائم فكيف يكون حال من يلحق الظلم والضرر بأخيه في الأدمية وقد أكرمه الله تعالى وفضله على غيره من المخلوقات، وهو القائل في محكم تنزيله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁵²، هذا وبعد أن نهى الله سبحانه وتعالى عن كل

⁴⁴ المصدر نفسه، ص. 113.

⁴⁵ البيهقي، في باب شعب الإيمان، (2528).

⁴⁶ أخرجه الزيلعي، نصب الراية (398).

⁴⁷ البيهقي باب شعب الإيمان، (3005)، والألباني، في كتاب ضعيف الجامع (3076).

⁴⁸ العجلوني، كشف الخفاء (446).

⁴⁹ الترمذي، سنن الترمذي (1924)، ابن حجر العسقلاني في الإمتاع (62)، و الألباني، في صحيح الجامع، (3522).

⁵⁰ البخاري (2363).

⁵¹ البخاري (2365).

⁵² الإسراء، الآية 70.

إكراه في الدين فقد أرشدتهم لما هو خير لهم وهو الاشتغال على ذواتهم والاهتمام بها فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَبِئْسَ الْكُفْرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁵³ كما أن الشريعة السمحة قد وضعت المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغيره وهناك عشرات الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية التي تحكي عن عظمة هذا الدين في حسن معاملته وبره لأهل الديانات الأخرى، فالحاكم أو القاضي مأمور بالعدل بين الخصمين، سواء كانا مسلمين أو غير مسلمين، أو كان أحدهما مسلم والآخر من غير ملة الإسلام، وكذلك المساواة في المعاملة اثناء المحاكمة.⁵⁴ وقد استشهد ابن خوجة بحادثة المصري الذي اشتكى إلى عمر بالخطاب مما حدث له مع ابن عمرو العاص في مصر الذي ضربه بالسوط عندما تغلب عليه الرجل المصري في سباق الخيل، فضربه ابن عمرو بن العاص وحاول إذلاله واحتقاره عندما قال له أنا ابن الأكرمين! فاقتصص له عمر بن الخطاب وأخذ له حقه من ابن والي مصر آنذاك عمرو بن العاص.⁵⁵

أما فيما يتعلق بقتال المشركين، فإن الأصل هو أن النبي ﷺ لم يقاتل أحدا لإكراهه على الدخول في الدين الإسلامي، والآيات القرآنية كثيرة تشهد على ذلك، إنما كان قتاله موجه رأسا على من قاتل المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم من غير وجه حق، فقط لأنهم آمنوا بالإسلام، وهو ما اصطُح عليه باسم فتنة الدين⁵⁶، فالقتال الذي أوجبه الدين الإسلامي ينحصر فقط في دفع الظلم و محاربة الفتنة بأنواعها وعلى رأسها حرية الاعتقاد وحرية الدعوة، فكل من منع الدعوة إلى الدين إسلامي وحرية الاعتقاد به فوجب في حق المسلمين الجهاد لمنع الظلم وفتنة الدين وهو ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده وقد استشهد به ابن الخوجة،⁵⁷ وإن مال المعتدي إلى المسالمة وترك الحرب والاعتداء على المؤمنين سواء

⁵³ المائدة الآية 105.

⁵⁴ ابن الخوجة، المصدر السابق، ص 115.

⁵⁵ «عن أنس إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، عائد بك من الظلم، قال: عدت معاذاً، قال: سأقت ابن عمرو بن العاص فسبقت، فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس: فضرب فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه، فقال عمر لعمر: منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتي». أخرجه الهندي في «كنز العمال» برقم (36010).

⁵⁶ ابن الخوجة المصدر السابق، ص 119.

⁵⁷ المصدر نفسه، ص 120 وما بعدها.

باقتناعهم بالإسلام والدخول فيه وإما بإعطاء الأغنياء منهم الجزية أو بالموادعة لقبولهم العيش في كنف الحكم الإسلامي، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح فلا بد من اللجوء والتمسك بالسلم والميل إليه، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁵⁸، وهو ترجيح للسلم والصلح على الحرب والقتل⁵⁹.

وينقسم غير المسلمين في علاقتهم بالدولة المسلمة إلى خمسة أقسام:

1- أهل الذمة⁶⁰ وهم من اختاروا أن يكونوا تحت حماية الدولة الإسلامية فلهم حقوق وعليهم واجبات كما للمسلم حقوق وواجبات وقد وضع الفقهاء كتباً ومصنفات بالمئات فصلت في هذه الحقوق والواجبات:

2- المعاهد، وهو الذي يكون بين الحاكم المسلم وبين قوم المعاهد عهد وميثاق متفق عليه فله حقوق وواجبات بينها الفقهاء في مجال اليهود والمواثيق.⁶¹

3- المهادن⁶²، وهو الذي ينتهي إلى قوم بينهم وبين المسلمين هدنة وسلم، ولا ذمة بينهم وبين المسلمين.

4- المؤمن، وهو الشخص الذي لديه حاجة لدى الدولة الإسلامية من أعمال وأشغال أو زيارة أقاربه وغيرها، وهو الذي ليس بين الدولة الإسلامية وبين بلده أي عهود ولا موثيق ولا ذمة، فإنه مؤمنٌ على حياته وماله وعرضه، شرط أن يحترم عادات المسلمين وشرائعهم وقوانينهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁶³

5- المحارب، وأحكامه تختلف باختلاف أوضاع الحرب والسلم وكل وضع يدخل في الأقسام السابقة.⁶⁴

⁵⁸ الأنفال، الآية 61.

⁵⁹ ابن الخوجة، ص 126.

⁶⁰ المصدر نفسه، ص 127.

⁶¹ المصدر نفسه، ص 127.

⁶² المصدر نفسه، ص 128.

⁶³ التوبة، الآية 6.

⁶⁴ ابن الخوجة، المصدر السابق، ص 129.

خاتمة:

ومما تقدم يتبين أنَّ الدين الإسلامي دين سلام وعدل وحرية وصدق لا دين ظلم وجور وعبودية ولا دين كذب ونفاق، فلا يُكره غير المسلمين على الدخول في الدين واعتناق عقائده وإقامة شعائره وتطبيق أحكامه، ولا يجبرهم على ترك دياناتهم، ذلك أن الإسلام هو إسلام الوجه لله وحده، ولا تسليم إلا بحرية، فلا ينتزع التسليم عنوة وإكراهاً، بل حبا وقناعة، فالتسليم لله وحده يترتب عليه طاعات وعبادات وشرائع، ولا يمكن لغير المقتنع وغير المسلم أن يطبق هذه الشرائع والأحكام والطاعات والشعائر وهو غير مقتنع ولا مُسلم بها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسِرَّ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾⁶⁵.

ويمكن أن نجمل هذه المبادئ والقيم في مايلي:

- أن الاختلاف والتعدد بين البشر مما أَرادَه الله، ومما يفصل فيه يوم القيامة، وإن الدين الإسلامي يؤمن بالرسالات السابقة.
- أن الإيمان وعدم الإيمان / الكفر قضية شخصية فردية لا تهم إلا صاحبها، أي أنها ليست من اختصاص السلطة، وبالتالي فلا تدخل ولا إكراه علي الإيمان من أي جهة.
- أن مهمة الأنبياء والرسل البلاغ والدعوة وليس لهم سلطة لإكراه أو جبر الناس على المعتقدات التي يدعون إليها.
- أن الهداية من الله وطبقا لمشيئته وأن الأنبياء أنفسهم لا يملكون وحدهم هداية الناس.
- ما يمكن الإشارة إليه في الأخير، فيما اشتغل به ابن الخوجة في مسألة التعصب الديني، عدم تطرقه لمسألة الردّة التي هي جزء لا يتجزأ من هذه القضية، وقد دارت حولها شبهات كثيرة فضلا عن الاختلافات التي وقعت بين علماء الإسلام في مفهومها وأحكامها.

⁶⁵ لقمان، الآية 22.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- الحديث النبوي.

1-المصادر:

1.1.مصادر ابن الخوجة:

- محمد مصطفى بن الخوجة الجزائري، أعمال محمد مصطفى بن الخوجة الجزائري، منشورات خمسينية جامعة الجزائر، 1962-2012، منشورات تالة، الأبيار- الجزائر، ط1، 2012.

2.1.المصادر التراث:

- ابن جرير الطبري، تفسير الطبري.

- ابن كثير، تفسري ابن كثير.

- ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الصحاب، تحقيق عادل مرشد، دار الأعلام، عمان الأردن، ط1، 2002.

2-المراجع:

- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1998.

- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1992، ج7.

- عادل نويمض، معجم أعلام الجزائر، دار اليقظة العربية، بيروت-لبنان، د.ت.

- عبد الجليل الكور، لماذا لست ملحدًا؟ المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت-لبنان، ط1، 2016.

- عبد الحميد بن باديس: ابن باديس حياته وآثاره، جمع ودراسة عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2، 1983، ج3.

- فهي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، عمان. دار الشروق، ط3، 1988.